الفصل السابع

المنظور النسقي للجنوح

1 . منطلقات المنظور النسقي

2. خلفية ان الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية :

2-1- .تصنيف الزوج لاوبير لأسر الجانحين :

2-1-1. النموذج المبنى على عدم الاهتمام الوالدى

2-1-2. النموذج المبنى على الصراع الأسرى

2-1-3. نموذج الأسرة ذات القيم المنحرفة

2-1-4. نموذج الأسرة المضطربة

2-2. تصنيف "فريشات و لوبلان" لأسر الجانحين

2-2-1. الأسرة ذات المنحى المتصارع

2-2-2. الأسرة غير الموجودة أو المنعدمة

3-3. تصنيف "لوبلان" لأسر الجانحين

3-3-1. نموذج الأسرة المناسبة

3-3-2. نموذج الأسرة المتنازعة

3-3-3. نموذج الأسرة الخرقاء

3-3-4. نموذج الأسرة المنحرفة

3-3-5- نموذج الأسرة العقابية

4. تصنيف ان الجنوح اضطراب مرضى يمس السلوك

4-1. نموذج التعمية

4-2. نموذج التبادلية الكاذبة

4-3. نموذج المثلث غير السوى

4-4. نموذج كبش الفداء

5. تعليـق

الفصل السابع

المنظور النسقى للجنوح

1.منطلقات المنظور النسقى

اهتم التناول النسقى فى ميدان علم النفس المرضى ـ وبالأخص الطب العقلى ـ بالأسرة ونظر إليها على أنها مجموعة من العلاقات تتم عن طريق التواصل. وإن كان يرجع هذا التناول إلى النظرية العامة للأنساق لـ " ليدوينج فان بيرتالونفى Ludwing". van Bertalanfy.1973 الذى اهتم بالأخص بالأنساق المفتوحة للتوازن؛ حيث أكد مصطلح "الضبط بواسطة التغذية العكسية " la régulation par feed back الذى كانوا قد أطلقوا عليه فى ميدان البيولوجية تسمية " ذاتية الانضباط "Homostase.

وهكذا وانطلاقا من سنة 1957 قام " دون. د. جاكسون " Don. D. Jackson مؤسس مدرسة "بالوالتو " Palo Alto، بتقديم فرضية مفادها " ...أن مرض المصاب يمكن أن يفهم كآلية ضبط ذاتى وظيفته إرجاع توازن النسق الأسرى، الذى يعيش فى خطر التغيير .(Elkaim.M,1997,P443)."...

هذه الوسائل النظرية سمحت فيما بعد بتفسير الوظيفة الدافعية إلى المرور إلى الفعل الجانح؛ من أجل الإبقاء على توازن النسق الأسرى الاجتماعى .

وهكذا أعطى هذا المنظور اهتمامًا بالغًا لفهم الفعل الإجرامى الجانح بالأخص داخل النسق الأسرى، مساعدًا بذلك على كشف وفهم الأفعال التى تظهر أنها غير مفهومة لكنها متكيفة، قد تكون مناسبة فى إطار يجعل القائم بها يكررها فى وضعيات مختلفة أطلق عليها " ج. باتسون " Batison.G 1985 الإكراه المزدوج " Double contrainte أوالمطالب المتضاربة ، كما يطلق عليها " علاء الدين كفافى ".

ويتخلل هذا المنظور النسقى عدة نظريات. حاولت كل منها تفسير الفعل الجناحى ضمن النسق الأسرى، من خلال التركيز على التفاعلات التى تتم بين أفراد الأسرة، ضمن خلفيتين:

إحداهما تنطلق من أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية، وهوبالتالى انعكاس لتخلى الأسرة عن دورها نتيجة لظروف اقتصادية ، اجتماعية وعاطفية .

والثانية تنطلق من أن الجنوح اضطراب يمس سلوك الجانح، وهوبالتالى انعكاس للاضطرابات المرضية التى تتواجد فى الأسرة نفسها(منطلق سايكاترى).

2.خلفية أن الجنوح انحراف عن القواعد الاجتماعية:

ويمثل هذا المنطلق كل من " الزوج لاوبير، وفريشات، ولوبلان، وفرانقتون، Leober &Leober 1986,Frechtte & Leblanc 1987,Farrington 1986" وفى هذا الإطار ظهرت أعمال علمية حديثة حاولت تفسير الفعل الجانح، مثل العمل الذى قام به الزوج " لاوبير ولاوبير 1986، وفريشات ولوبلون 1987 ... وغيرهم ".

1.2.تصنيف الزوج لاوبير للأسر الجانحين:

يرى الزوج لاوبير بأن أسلوب المعاملة الوالدية ـ الذى ظهر أول ما ظهر كعامل مثير للانتباه العلمى كان فى أعمال " ماكوبى ومارتن Maccoby & Martin 1983"؛ حيث يقترح الزوج لاوبير أن نفرق بين أربعة " نماذج Paradigms للمعاملات الأسرية لفهم المشاكل المقترنة بالفعل الجناحى وهى كالتالى :

1.1.2.النموذج المبنى على عدم الاهتمام الوالدى: Néglect paradigm

وهونموذج مقترح كإطار لتحليل الأسرة، لايقوم بموجبه الوالدين بتخصيص وقت كاف لأطفالهم فيما يخص التفاعلات الإيجابية، ولا يهمهم التجاوزات التى يقوم بها أطفالهم، كالسرقة الأولى مثلا.

كما لا يعيرون الانتباه إلى مطالب أبنائهم ولا لتطبيقهم للنظام داخل البيت ... إلخ. كما لا يهمهم اهتمامات أبنائهم، ولا لكيفية تمرير وقتهم، ومن هم زملائهم .

الشىء الذى يجعل الأطفال يلتجئون إلى حل مشكلاتهم باعتمادهم على أنفسهم، حسب ما تمليه عليهم معرفتهم البسيطة . وهذا ما يجعلهم لا يهتمون بما يفكر فيه أولياؤهم، وهومجرد رد فعل لعدم اهتمام آبائهم بهم.(Loeber Stouthamer. 1986,pp 41-42).

أما الشيء الملاحظ عبر هذا النموذج أنه يشير إلى عاملين أساسيين، يتحملهما الوالدان ألا وهما عدم تدخل الوالدين، مما يؤدى إلى قلة ونقص الإشراف، الشيء الذى يجعل الطفل يعتمد على تجربته البسيطة فى التكيف مع المحيط .

2.1.2. النموذج المبنى على الصراع الأسرى: Conflict paradigm

وهوالنموذج المقترح لتحليل الأسرة التى يعيش أفرادها (الأب، الأم، الأبناء) الصراعات الدائمة . فالصراع هنا إما ينطلق من الوالدين، أويكون نتاج سلوكيات الأطفال، وهذه ميزة الأسرة التى لا تعرف كيف تضبط الحدود وتفرض قدرا من النظام . فهى إما تفرض نظاما قاسيا على الأولاد، أوأنها تتخلى كليا عنه، أوأنها لا تستطيع أن تتعامل مع المشاكل حين طرحها، قبل استقرارها فى وسط الأسرة؛ مما ينتج عنه كما يرى "الزوج لاوبير " تكون أفكار سيئة لدى أفراد الأسرة فيما بينهم.

وبذلك يلاحظ أن الباحثين يؤكدان من خلال طرحهما احترام النظام من جهة، والكراهية المتبادلة بين أفراد الأسرة . هذان العاملان يمكن أن يقاسا داخل الأسرة حسب "الزوج لاوبير" بما يلى:

أولا :بالنسبة لمتغير احترام النظام ويتم قياسه كالتالى:

- الالتجاء إلى العقاب الجسمى والمنع اللذين يؤديان أحيانا إلى ما يسمى بالمعاملة السيئة، وهى كما عرفنا سابقا أنها أحد عناصر التنبؤ بالجنوح.
- المضايقة والقمع المستمر.
- خطأ المنطق المتعامل به.
- نقص الحب.
- انضباط مبالغ فيه أوعدم نجاعة النظام داخل الأسرة.
- العقاب المبالغ فيه والذى يدرك من قبل الطفل على أنه غير عادل.

ثانيا بالنسبة لمتغير الكراهية ويرى " الزوج لاوبير" إما أنه ينطلق من الأبوين أوأحدهما نحوطفلهما أوأطفالهما، أو من الأطفال اتجاه الأبوين أوأحدهما.

وفى كلتا الحالتين (الأولى والثانية) يظهر هذا العمل الهوية اليافعة والتعلق بالوالدين.

3.1.2.نموذج الأسرة ذات القيم المنحرفة Deviant behaviors values paradigm:

وهوإطار مقترح لتحليل الأسرة التى يحمل فيها الوالدان أنفسهم قيمًا وسلوكيات منحرفة أوجانحة؛ مما يؤدى بهم إلى السماح بل تشجيع أبنائهم على ممارستها (Loeber ,ibid., p44).

وهذا ما أشار إليه العلامة " ادوين سوذرلاند " E. Sutherland فى نظرية الترابط الفارقى التى مرت معنا، والتى فى إطارها يبين كيفية تعلم الجنوح من المحيط .

وحسب هذا النموذج، يلاحظ أن الوالدين يدافعان عن أبنائهم فى حالة تدخل المؤسسات الاجتماعية من اجل إصلاحهم . (Muccheilli, Ibid,P51).

4.1.2.نموذج الأسرة المضطربة Discruption paradigm :

وهومقترح لتحليل الأسرة التى تتعرض إلى أحداث عويصة تتسبب فيها اضطراب علاقة أفرادها .وبالأخص علاقة الزوجين (الأبوين)إلى درجة تعرض تماسك الأسرة أحيانا إلى التفكك . وهنا يظهر القلق الذى قد يكون من أسبابه العوامل الاقتصادية الاجتماعية، أوالعلاقة الزوجية التى تدفع إلى الحساسية والعدوانية فى السلوك؛ مما ينجم عنه الإضرار بالعلاقات بالأطفال، ومن ثم إنقاص ثقة التواصل والتبادل بين أفراد الأسرة، كما يمكن أن يقلل من فعالية الإشراف الوالدى عن طريق إما جعل ممارسته متشددة أومتميعة .

إلا أن هذا الاضطراب قد يكون مؤقتًا، وهنا إما أن ينتهى أويؤدى إلى الانفصال، أويبقى مستمرا، وفى هذه الحالة ندخل فى نموذج الصراع الأسرى.

وقد حاولا الباحثان " لاوبير" تفسير ذلك على أن اضطراب الأسرة يتم بالطرق التالية:

أ ـ الاضطراب بين الوالدين وهوعادة أكبر مؤشر للجنوح.

ب ـ ضياع أحد أوكلا الأبوين إما بالانفصال أوالموت.

جـ ـ صحة الأبوين الجسمية والعقلية؛ مما يحتم تحديد الآثار النفسية لهذه الحالة على الأطفال. " (Loeber ,Ibid,pp72-79).

تلك هى النماذج الأربعة التى اقترحها الزوج " لاوبير " من خلال التناول النسقى

للأسرة . إلا أن هذا كما يقول " ميكيلى " Mucchielli ,2000 أن " الزوج لاوبير" لم يقل بالضبط ما هوالنموذج الأسرى، الذى يمكن أن يتماشى أكثر مع نوع وطبيعة الجنوح. إلا أنهما اقترحا فيما بعد من خلال تدخلاتهما المختلفة فى المؤتمرات الدولية، بأن عامل " الإهمال " يؤدى اكثر إلى الاعتداء على الأشخاص.. غير أن ذلك لم يؤكد ببحوث علمية ..." (Mucchielli, p51).

2.2.تصنيف "فريشات ولوبلون" لأسر الجانحين

تأثرا بالتصنيف السابق الذى قدمه الزوج "لاوبير " قام كل من " م. فريشات، لوبلون "M.Fréchette & Leblanc ,1987 ببحث على عينة من المراهقين الساكنين فى مدينة "كيبيك الكندية"، حيث وصل الباحثان إلى اقتراح نمطين من الأسر المهيأة للجنوح، وهما:

1.2.2.الأسرة ذات المنحى المتصارع: La famille conflictuelle

وفيها تظهر كل أنواع المشكلات (الاجتماعية، الاقتصادية، العاطفية القانونية ...إلخ)والتى تخلق صراعًا خطيراً بين أفرادها .

2-2-2-الأسرة المنعدمة (غير الموجودة): La famille Inexistante

وهى الأسرة التى لا تمنح لأطفالها لا الحب الحقيقى، ولا التأطير الجيد، مما يجعل الأطفال مستسلمين لأنفسهم . (Fréchette ,M ,Leblanc ,1987,pp149-150).

وهكذا يلاحظ مدى تأثر تصنيف (فريشات / لوبلون) بنتائج تصنيف "الزوج لاوبير" بالأخص فيما يخص نموذجى الأسرة المتصارعة، والأسرة المبنية على عدم الاهتمام الوالدى لدى لاوبير.

2.3.تصنيف "لوبلان" لأسر الجانحين

اهتم" لوبلان " Leblanc أكثر بتصنيف أسر الجانحين، مما دفعه إلى إجراء بحث فى سنة 1990. مستعملا فى ذلك استبيانًا مكون من 113 سؤالا، طبقه على عينة مكونة من (4400 مراهق من بينهم 500 جانح مكفولين من قبل العدالة)؛ الشىء الذى نتج عنه إيجاد خمسة نماذج أسرية تتقارب كثيراً مع نماذج الزوج لاوبير، التى أشرنا إليها سابقا وهى:

1-3-1-نموذج الأسرة المناسبة أو الملائمة La famille éduququâtes :

وتوجـــد عند 45% من المراهقين ذكورا وإناثا، وتمتاز هذه الأسر بأنها : ليس لها مشكلات اقتصادية خاصة، ثبات بنيتها (كل أفراد الأسرة يعيشون معا)، الأم غير عاملة، أوتعمل نصف الوقت، الارتباط بين الوالدين والأبناء قوى، والدان غير منحرفين ، إشراف قوى وعقاب قليل، نقص الأطفال المكفولين من قبل العدالة .

2.3.3.نموذج الأسرة المتنازعة La famille conflictuelle:

وتتصف هذه الأسرة بأنها سليمة وتتواجد لدى 18% من الذكور، و22% من الإناث المراهقات، وبنسبة 16% بين الإناث والذكور المكفولين من قبل العدالة .

يمتاز هذه الأسر بـ : كحولية متداولة لدى الوالدين، يتفوق لديها العقاب على الإشراف الوالدى، يظل الأب غائبا غيابا نفسيا حتى ولولم يتم الانفصال، الاتصال بين الأب والأبناء جد مضطرب.

3-3-3-نموذج الأسرة الخرقاء La famille malhabile:

وتتواجد لدى 16% من المراهقين الذكور و22% من الإناث، وبنسبة 39% لدى الجانحين الذكور تحت كفالة العدالة، و41% لدى الإناث من الحالة نفسها .

يمتاز هذا النمط من الأسر بـ : أن الوالدين فيه غير متفرغين، لاوجود به لمفهوم الأسرة، تتصف الأسر فيه بكثرة التنقل من مدينة إلى أخرى، تعتبر الأم مصدر العيش فى كثير من الأحيان.

أما لدى الأحداث المكفولين من قبل العدالة.. فتمتاز أسرهم بـ الفقر المدقع، ضعف الارتباط، قلة المراقبة والإشراف.

4-3-3-نموذج الأسرة المنحرفة La famille déviant :

وتتواجد بنسبة 16% عند الذكور و عند الإناث، وبنسبة 11% لدى الجانحين الذكور المكفولين من قبل العدالة، وبنسبة ضئيلة لدى الإناث .

تمتاز هذه الأسر بالفقر المدقع، تناول المخدرات، تعتبر الأم متغيبة فى كثير من الأحيان.

5.3.3.نموذج الأسرة العقابية : punitive La famille

وتتواجد بنسبة 4% لدى الذكور و15% لدى الإناث من العينة العامة . أما لدى الجانحين المكفولين من قبل العدالة فتتواجد بنسبة 8% عند الذكور، وبنسبة ضئيلة لدى الإناث.

تمتاز هذه الأسر : بأن الارتباط بين أفرادها ضعيف مقارنة بالأسرة الملائمة، كما ظهر أن هناك فارقًا ما بين إشراف غير ممارس وعقاب قوى، ويظهر أن التعلق قليل لدى المراهقين مقارنة بالأسرة الملائمة، كما يظهر الفقر المدقع بالأخص لدى الأسر التى لها أطفال تحت كفالة العدالة .

وهكذا يلاحظ مما فات أن التنظيم الأسرى الأكثر خطورة فى توليد جنوح الأحداث، يظهر حسب الأهمية التنازلية لترتيبه، كما يلى :

الأسر الخرقاء، الأسر العقابية، الأسر الصراعية، الأسر المنحرفة، وأخيرًا الأسر الملائمة؛ حيث بنى هذا الترتيب التنازلى على المقارنة بين العينة الكلية والعينة المكفولة لدى العدالة.. إلا أن الملاحظ أن الأسر الأكثر توليدا للجنوح تمتاز أكثر من غيرها بانحطاط كبير فى الجانب الاقتصادى وتناول أقل للكحول.

وهكذا رغم أهمية هذه الدراسة فى الكشف عن أنماط الأسر المولدة للجنوح.. إلا أنها لم تحدد ـ على غرار دراسة " الزوج لاوبير " ـ طبيعة الجنوح الذى يتولد عن هذه الأنماط المختلفة من العائلات ، كما أنها لم تحدد لماذا أحد الأطفال بين أخويه يكون هوبالضرورة جانحًا دون غيره ؟ ولماذا لم يظهر الجنوح لدى بعض العائلات دون غيرها رغم تماثل الظروف المثيرة للجنوح ؟

4.خلفية أن الجنوح اضطراب مرضى يمس السلوك

لم ينطلق هذا المنظور أصلا من الجنوح كانحراف عن المعايير الاجتماعية التى يعيشها الفرد ضمن جماعته، وإنما من كون الجنوح اضطرابًا مرضيًا مثل بقية الاضطرابات الأخرى يصيب الجانح فى سلوكه؛ مما يجعله يأتى بأفعال تعكس الاضطراب السلوكى الذى يعيشه الأبوان، والذى سيجد له متنفسا فى أحد أطفالهما ليتخذاه وسيلة للتعبير عن حاجاتهما النفسية غير المشبعة، عن طريق عمليات تفاعلية لا سوية يكون أبطالها كل أفراد الأسرة .

وفى ذلك ظهرت عدة نماذج تحاول تفسير تلك التفاعلات اللاسوية مثل " التعمية لـ ر.لينغ R.Laing 1956، والتبادلية الكاذبة لـ ليمان واين Lyman Whyne 1958، والمثلث غير السوى لـ بوين Bown 1994، وكبش الفداء لـ أكرمان Ackerman 196 ، ...إلخ.

1-4-نموذج التعمية Mystification:

واستعمله " لينغ " للتعبير عن الصورة المرضية للأسرة، ويتضمن المراوغة، والإنكار، ولبس القناع .

وهنا عادة ما يكون الآباء هم الذين يستغلون الأطفال، بينما يكون الأطفال هم الطرف الذى يقع عليه الاستغلال .

وبموجب مفهوم التعمية يحس الطفل بأنه سعيد مثلا، بينما هوغير ذلك، وعندما تختلف خبرته الشخصية عن الآخرين.. فإنه يحس بالقلق والحيرة والتشويش مما يجعله يعتمد على الآخرين فى وصف وتفسير الواقع المحيط به، وبالتالى فهويقيم حياته على ما يراه الآخرون صوابا أوخطأ.

وبذلك يستدخل الطفل مرض الأسرة وانحرافها، ويصبح جزءًا من الحلقة النشطة العاملة فى الحفاظ على انغلاق الأسرة ، فى (علاء الدين كفافى 1999، ص ص 150-158).

2.4.نموذج التبادلية الكاذبة Pseudomutiality:

ويقول بها "ليمان واين " وبموجب ذلك تتم الألفة بين طرفين، لكنها آلفة كاذبة، حيث تتم على حساب النموالشخصى لأعضاء الأسرة وعلى حساب هويتهم المستقلة مما يعطى نمطًا أسرياً متعلقًا . وهذا ما يطلق عليه ما يسمى"أسطورة الأسرة Family myth".

فعلى الرغم من غياب الأب الطويل، تظل الأم تصر على أن زوجها يكرس نفسه لخدمة أسرته بل ويتفانى فى ذلك، وتحاول أن تغرس ذلك فى نفوس أبنائها وإقناعهم بأنهم سعداء .

وفى هذا أشارت " سيبرج " Seiburg 1985 إلى أنها عندما ركزت العلاج على الأب بحضور بقية أفراد الأسرة، ثارت ثائرة الأسرة كلها تدافع على سعادة الوالد، ذلك أن الوالد كان فارضا عليهم أن يكونوا سعداء.. رغم أن الأسرة ككل كانت تعانى من مظاهر خلل عديدة ، ولم تعد من ساعتها إلى العلاج. فى (علاء الدين كفافى، 1999، ص ص 148 ـ 150).

3.4.نموذج المثلث غير السوى Pervers triangle:

ويتكون هذا المثلث حسب " بوين " من أحد الوالدين مع الطفل ضد الطرف الأول (الأب أوالأم).وتمتاز العلاقة بين الزوجين بالبرودة بل أقرب إلى العلاقة التنافسية العدائية.

كما يكون الأبوان غير ناضجين، ولكنهما لا يعترفان بعدم النضج، ويدعيان التوافق ويبالغ كل منهما فى ذلك؛ خاصة الأم فهى التى تحرص على ادعاء التوافق أكثر؛ مما يؤدى بالأب إلى ترك المجال للأم للسيطرة على الأسرة لتشبع حاجتها للسيطرة، وهذا ما يطلق عليه " بوين 1994 "تسمية "الطلاق العاطفى . " Emotion divorce ، ويتم بموجب ذلك أن الأم المسيطرة تضل تترقب وصول المولود، الذى ينتمى إليها ويحتاج إلى مساعدتها . وما أن تشعر بالمولود القادم حتى تتمركز عاطفياً نحو الطفل الذى لم يولد بعد، بدلا من الزوج الذى تكون معه فى حالة طلاق عاطفى بالفعل . ويزداد هذا التمركز حول الطفل، وتنسى مسؤولياتها الأخرى نحوالأسرة بدعوة حماية الوليد الضعيف؛ مما يزيدها قلقا ووهمًا زائدًا . وهذا فى الحقيقة تعبير عن عدم توافقها أصلا .

وإن لم يوجد حل لهذا الوضع، يرى " بوين " أن الأم قد تتخذ ميكانيزمات ذات طابع عصابى، مما ينمى لديها شخصية عصابية، وإذا استمر ذلك فيتحول إلى أعراض سيكوسوماتية، أوأعراض هستيرية ،أوالارتماء فى أحضان الإدمان والجنوح.

4.4.نموذج كبش الفداء Seapegoating:

ويقصد به استغلال الطفل لصالح توترات الوالدين؛ لتوفير حل المشكلات الوالدية المستعصية، وإن كان حلا غير سوى؛ فعندما يصبح التوتر شديدا بين الوالدين، ينبغى أن يحدث تفريغ لهذه المشاعر والانفعالات . ولما كان الوالدان لا يستطيعان التعبير عن

مشاعرهما مباشرة ـ كل منهما نحوالآخر ـ لان هذا من شانه أن يزيد التوتر بينهما، ويلهب الصراع إلى الحد الذى قد لايتحملانه.. فإن وجود طفل يقدم الحل الذى يتمثل فى توفر الهدف، الذى تتجه إليه الانتقادات والمشاعر السلبية لكل والد نحوالوالد الآخر، بعد أن يحولها أويزيحها إلى هذا الهدف النبيل، (د/ جابر عبد الحميد، علاء الدين كفافى ،1988، ص415).

ويعتبر "د/ علاء الدين كفافى 1999" أن اتخاذ وضعية كبش الفداء من أكثر العمليات المرضية انتشارًا وشيوعًا فى الأسر المضطربة؛ لأنه من أكثر الميكانزمات فائدة وصيانة للنسق الأسرى.

وفى رأيه يختار الطفل ككبش فداء بصورة تكاد تكون لاشعورية، ولكنها رمزية.. ففى حالة فشل الزواج مثلا، سوف يكون كبش فداء الزوجين الطفل الفاشل فى دراسته بسبب أنه يرمز للفشل، كما يمكن أن يختار الطفل لكبش الفداء حسب جنسه، أوترتيبه الميلادى، أوبحسب بعض العيوب كانخفاض الذكاء، أوإصابته بمرض جسمى أو عاهة، أولديه انقياد وسلبية وخضوع وقابلية للانسحاب .. (د/ علاء الدين كفافى، 1999، ص ص154 - 155).

أما الديناميات وراء لعب هذا الدور، فإن الطفل يتدرب على أن يكون حساسًا للتوترات الناشئة فى النسق الأسرى، وعليه أن يجذب الانتباه إليه بسلوك معين يجعل الجميع يخول انتباههم إليه، وقد يؤنبونه أويعاقبونه، وبهذا ينخفض التوتر الأصلى فى النسق ويعود إلى حالة الاتزان؛ ذلك أن الطفل الذى يقبل بهذا الدور يستدخل توقعات والديه، ويستمر فى الاستجابة إلى الحاجات الوالدية بشكل شعورى أو بشكل لاشعورى . ومن هنا فإن الطفل الممزق سوف يستمر ممزقًا ما دام سلوكه يجد التدعيم، والطفل المضطرب سوف يبقى مضطربًا للسبب نفسه، ما دام دوره أساسيا فى الحفاظ على التوازن وفى استعادته إذا اهتز.(المرجع نفسه، ص 155) .

كما أن هناك بعض الاضطرابات السلوكية الأخرى، قد أشار إليها " ليدز lidz "1960، تحدث عادة فى الأسر المولدة للمرض، وهى الانقسامات مابين أفراد الأسرة الواحدة، انحراف الأسرة، العزلة الاجتماعية والثقافية للأسرة، الفشل فى تعليم الأبناء

وتسهيل تحررهم من الأسرة، إعادة التنميط الجنسى والهوية الجنسية ... فى (علاء الدين كفافى، 1999، ص ص 156 ـ 158).

ومن الذين اهتموا بالمناخ الوجدانى غير السوى فى الأسرة، ضمن التناول النسقى، الباحث " أكرمان Ackerman 1958 " الذى يرى أن فى مثل هذه الأسر نوعًا من التناقض بين ما يبدوعلى السطح وما يحدث فى الداخل ، فما يبدوعلى السطح يوحى بالهدوء لا يقوم على أسس قوية داخل الأسرة، وعلى نوعية العلاقات بين أفرادها، وعليه ينتشر فى جوالأسرة نوع أسماه أكرمان " الموت الوجدانى Affective "Deadness، وهو جو يصبغ المعاملات بين أفراد الأسرة بصبغة اكتئابية، تتسم بالحد الأدنى من التلقائية والحيوية والحركة الحرة.

غير أن هذا الهدوء المصطنع يحدث أحيانًا أن تمزقه بعض الثورات الانفعالية العنيفة، التى تنطلق من حادث صغير تافه لينقلب بسرعة إلى إثارة غامرة وذعر شديد ليفتقد الاستقرار والأمن . غير أن الثورة التى هبت فجأة تنطفئ كذلك فجأة، وكأن شيئا لم يكن، وهكذا يرى أكرمان أن المنزل يتحول إلى مكان موحش وفارغ من العلاقات الإنسانية الدافئة، وكأنما يفقد كل شىء معناه فى هذه الأسر.

لذلك يشعر أبناء هذه الأسر بالقلق والذنب، وتسرى العداوة بسهولة من واحد لآخر. وفى هذا الجوالكئيب يخاف عضو الأسرة دائمًا من أن يلام، وان يسب وأن يعاقب، وكدفاع ضد هذا الخوف.. تنمولدى عضوالأسرة الحاجة إلى كبش فداء، وإلى إلصاق التهم بالآخرين ودمغهم بأوجه النقص.

وهنا يرى أكرمان أن الدافع الجنسى يرتبط بالدافع العدوانى على نحووثيق لدى أفراد هذه الأسرة، ولكن الدافعين يعانيان الكبت الشديد فيسقط الفرد مشاعره السلبية والإحباطية على العالم الخارجى، ويدركه عالمًا قاسيًا غير ودى . وعلى أفراد الأسرة لكى يواجهوا هذا العالم المعادى، أن يؤكدوا مبادئ الولاء المتبادل؛ فكل منهم يرى من واجبه أن يشجع الآخرين ويدعمهم؛ لأنه دون هذا التشجيع والدعم يشعر الجميع بأنهم مهددون بالهلاك . فى (علاء الدين كفافى، مرجع سابق، ص ص 160-161).

بل يصل الحال بالأبوين أوأحدهما إلى حد إسقاط الطفل فى ما اسماه "د/ كفافى

1999 " لا أنسنة " Dehumanisation أوما أطلق عليه "التشيئية " chosification وهى علاقة كما يرى "كفافى"، ..."غير إنسانية أومشيئة، والتى بموجبها يدرك فيها أحد الأطراف الطرف الآخر كشيء أوكوسيلة لتحقيق غاية وليس غاية فى حد ذاته . وكثيرا ما يكون التملك وراء هذا التوجه فى العلاقة، الذى ينظر إلى شخص آخر نظرة مشيئة ينظر إليه كشيء يمتلكه، وهوالاتجاه الذى يحكم نظرة كثير من الرجال نحوالنساء، أوالأزواج نحوالزوجات، ونظرة الآباء نحوالأبناء...(كفافى، مرجع سابق ، ص 137).

وهكذا يلاحظ كأن هذه الأسر المولدة للاضطراب تبنى شرنقة لأطفالها، لايمكن الخلاص منها، رغم التعفن الداخلى الذى يمس كل أفراد الأسرة وتواصلهم مع بعضهم البعض؛ مما يجعل الأبناء يبحثون خارج هذه الشرنقة الأسرية المتصدعة التواصل، عن تواصل مع بديل آخر أكثر تفهمًا وحبّاً وتقديرًا فى نظر هؤلاء، وهذا المكان قد يكون الزملاء وكل المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وقد يكون غول الشارع وما فيه من مثيرات، قد تلتهم هذا الباحث عن مصدر آخر أكثر حبّاً وتقديرًا.

إلا أن الذى لم يشر إليه فى هذه النماذج المختلفة، أن أفراد الأسرة وبالأخص (الأم والأب) وما يتخلل علاقاتهما من صراعات شعورية أولا شعورية، متعلقة إما باضطراب شخصية أحد منهما أوكليهما قبل الزواج، واضطراب شخصيتهما بعد تجربة الزواج.. هذا الاضطراب المرضى ينعكس مباشرة على أحد أطفالهما، وهوطبيعة المناخ الوجدانى السائد فى الأسرة على أساس أن العلاقة بين الطفل بوالديه تكون فى البداية اعتمادية تظهر على شكلين : شكل بيولوجى وشكل عاطفى، فإذا قل الشكل البيولوجى بعد ذلك، إلا أن الشكل العاطفى من العلاقة يبقى مستمرا لمدة أطول؛ أى إن عملية التواصل تبقى دائما مستمرة، رغم تغير أشكال العلاقات .

وهكذا يلاحظ أن التناول النسقى للأسرة أعطى اهتمامًا كبيرًا لصيغة التواصل داخل الأسرة، والذى جعل منه سبب كل الأسباب المؤدية إلى اضطراب كل أفراد الأسرة وبالأخص ما يصيب الطفل (نموذج الرابطة المزدوجة لـ باتسون، ونموذج التعمية لـ لينغ، ونموذج التبادلية الكاذبة لـ وينى ... إلخ.

فالجانح فى هذه الحالة هو أصلاً خريج نسق اتصالى تفاعلى مريض ولا مجال لثنيه

عن ذلك إلا بإصلاح هذا النسق، ومن خلاله إرجاع عملية التواصل والتفاعل إلى حالتها الطبيعية؛ أى الاهتمام بكل أفراد الأسرة ومن بينهم الجانح كنسق غير منفصل عن النسق الفوقى، وفى تفاعل مع الأنساق الفرعية المكونة لها .

5.تعليق:

رغم أن هذا التناول لم يفرق بين الجانح المرضى الذى يقول به السايكتريون، والجانح الاجتماعى الذى يقول به النفسانيون والاجتماعيون. ألا أنه يمكن إضافة إلى العامل المرضى الكامن أصلا فى شخصية الأب والأم، القول كذلك بالعامل الاجتماعى والاقتصادى)البيئة المادية المحيطة)،كمؤثر فى بناء شبكة العلاقات والتواصلات بين أفراد الأسرة؛ ذلك أن النفسى لا يتكون إلا إذا اتصل البيولوجى المعرفى (المكونات الداخلية) بالبيئى (المكونات المادية العلائقية)، وحدث تفاعل بينهما.

وبهذا ولأول مرة تنزع صفة البطل الرئيسى لعملية الجنوح وسحبها على كل أفراد الأسرة، عكس ما جاء فى كل النظريات الأخرى .

كما ابتعد هذا التناول ـ بخلاف بقية التناولات الأخرى ـ عن مجرد تجميع لعوامل مختلفة، ولإيجاد درجة الارتباط فيما بينها والقول بتفسير السلوكيات المنحرفة والإجرامية، وهذا ما فعلته بالأخص الدراسات الطولية وغيرها، والتى ترى عمومًا أنه قلما يكون عنصراً واحداً هوالمحدد الوحيد لظاهرة ما.

إن التناول النسقى للأسرة خالف ذلك، وجعل كل أفراد الأسرة المكونين للنسق وما يدور بينهم من علاقات وتحالفات، تحددها القواعد الداخلية التى تحكم الأسرة، وليس احتياجات الأفراد أودوافعهم أوسمات شخصياتهم هى التى تحدد تتابعات التفاعل بين أفراد الأسرة ؛ علمًا أن الإبقاء على هذه العلاقات هوالإبقاء على الأسرة ذاتها ، وإلا فلن تكون أمامنا أسرة.

وفى ذلك يرى " ج.ج. لومير .. " Lemaire J.G 1989أن التناول النسقى يظهر العلاقة الدائرية والتكاملية التى تنظم الفروق الفردية (المميزات الفردية) لأعضاء النسق؛ فهى كذلك ليست نظرية تفسيرية فى حد ذاتها، ولكنها مجموعة نظريات توصف بشكل معين تنظيم المصطلحات داخل نظرية تفسيرية ..." Lemaire (.1998,p115).

وبناء على ذلك يقترح "لومير " استعمال النظرية التحليلية فى تفسير الطريقة الخاصة لمحتويات التفاعل الأسرى كنسق، كما يذهب " كرستيان سافارChristian Savard1997 ؛ انطلاقا لما قال به كل من " برودر، بيلسر، طاراب&, Pelsser, Tarab Brodeur " من أن " التناول التحليلى يهتم بما يدور داخل الأفراد بينما يهتم التناول النسقى بما يدور بين الأفراد، ولذلك يرى أن هنالك تداخلاً وتأثيراً متبادلاً مابين ما يدور فى أعماق النفس، وما يدور بين الأفراد .

وهكذا أراد " كرستيان سافار وآخرون " الجمع بين التناول التحليلى والتناول النسقى فى إطار واحد، يمكنه أن يصبح قادراً أكثر فى نظرهم على تفسير الاضطرابات التى تمس شخصية الفرد وشخصية الجماعة ومجموع علاقاتها، والجنوح من بين هذه الاضطرابات التى يمكن تفسير ملمحه بناء على ذلك.

وإن كان ثمة سؤال: أى نموذج قال: لماذا هذا الطفل بالذات دون الآخر؟، وهل يدوم هذا الاضطراب لمدة طويلة؟، وهل يمكن أن يظهر فى بعض أعمار معينة للوالدين دون غيرها ؟ وهل كل هذه النماذج ينتج عنها بالضرورة جنوح الصغار؟ ... إلخ، وما علاقة هذا النوع من الاضطرابات بالمستوى الاجتماعى الاقتصادى والتعليمى للأباء، وعدد الأطفال، وترتيبهم الميلادى، وجنسهم ؟ ...إلخ، كلها أسئلة تحتاج إلى توضيح أكثر ضمن التناول النسقى .

ولكن رغم ذلك يبقى التناول الثنائى (التحليلى الداخلى، والنسقى البيئى) لايكتملان فى تفسير ظاهرة الجنوح، إذا لم نفسر الظاهرة من وجهة نظر الجانح نفسه (إدراك الجانح) لما يدور فى البيئة التى يعيش فيها، انطلاقًا من إدراكه الشخصى لكل العلاقات والتفاعلات والمشكلات التى عاشها بالأخص فى الأسرة كبيئة قاعدية وأساسية، استمد منها خبرته الأولى والأساسية، والتى ستبقى منقوشة فى شخصيته .

إنه التناول السلوكى المعرفى، وبالأخص نظرية التعلم الاجتماعى.